النقد ونقد النقد في الفكر العربي المعاصر

أ/ موسى بن سماعين – جامعة باتنة

مقدمة

يتفق الدارسون على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم على مكانة النقد في المعرفة، سواء نظرنا إليها من جهة الإبداع والاكتشاف، أو من جهة البرهنة والإقناع، آو من جهة التبليغ والتعليم، ففي كل الأحوال يحتاج الفكر إلى درب يسير عليه، وخطوات متزنة يتبعها لبلوغ غايته، وستكون الحاجة إلى منهج قويم أشد إذا أضفنا إلى المعرفة صفة الفلسفية، لما هي عليه من تجريد وكلية تتجاوز المعطى والسائد، وتهتم بالما قبل، والما بعد، مما يجعل المنهج فيها يتصف بصفة النقد والفحص وإعادة النظر، وتأويل الموضوع، الذي ينصب عليه هذا المنهج، وفي هذا السياق بالذات نجد أنفسنا أمام مناهج كثيرة متباينة ومتداخلة، خاصة في ظل انهيار الحدود بين الاختصاصات التقليدية، وانفتاح الدرس الفلسفي على مجالات كانت إلى وقت غير بعيد ليست من الشأن الفلسفي، فنتج عن ذلك تناسل المناهج المعرفية من جدل وتأويل وتحليل وتفكيك....إلخ، ترتب عليه شحذ دائم لآلة النقد في هذا المنهج أو ذلك.

لم يكن الفكر العربي بمعزل عما يجري حوله – رغم ما يوصف به من تخلف – إذ دلت الوقائع إن هذا الفكر يتلقف المفاهيم والمناهج والمذاهب ويحاول قراءتها وتبيئتها بتعبير الجابري – لتتحول إلى أدوات للقراءة والنقد والتأمل، فكان الربع الأخير من القرن العشرين، عصرا للنقد ونقد النقد، فكثرت المشاريع التي تدعي النهوض بالعقل العربي وجعله مستفيقا، قادرا على العطاء متجاوزا زمن العطالة والاستقالة والبقاء على الهامش، ولعل أهم مشروع يذكر في هذا السياق، مشروع محمد عابد الجابري، الذي أخذ عنوان نقد العقل العربي.

إن الإقرار بأهمية هذا المشروع لا تعني الانحياز إليه، أو الوقوف ضده، بل لما أثاره من ردود فعل – تمثل خلخلة وهزة للعقل العربي – فظهرت على إثر ذلك مشاريع أخرى تقع تحت طائلة نقد النقد، منها ما كان غثا ومنها ما كان سمينا، إزاء ذلك نطرح التساؤل التالي: مالمقصود بالنقد؟ ما هي المناهج التي يتكئ عليها النقد؟ أهُوَ نقد موضوعي يستهدف الحقيقة أم أنه سجال يعمي عن الحقيقة؟ وبصيغة

برجماتية أترتّب على هذه الرؤية النقدية حراك في العقل العربي أم كان مجرد جعجعة رحى لم نر لها طحينا بعد؟

في مفهوم النقد:

أ- في اللغة: تأخذ كلمة النقد في اللغة العربية معاني كثيرة يعنينا منها، ما ورد في لسان العرب تحت ماد ة نَقَدَ «ناقدت فلانا إذ ناقشته في الأمر»[1]، و« نقد الرجل الشيء بنظره ينقده نقدا ونقد إليه، اختلس النظر نحوه، ومازال فلان ينقد بصره إلى الشيء إذ لم يزل ينظر إليه»[2] و«في حديث أبي الدرداء أنه قال: إذا نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك، معنى نقدتهم أي عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله»[3]، ويكاد يرد نفس الضبط في القاموس المحيط من ذلك النقد «اختلاس النظر نحو الشيء»[4].

يفهم من التحليل اللغوي أن النقد نظر وإمعان في النظر بغرض معرفة ما في الشيء من حسن وما فيه من عيب ومثل ما يصدق ذلك على البصر يمكن أن يكون للعقل، وعليه فالنظر عند حكماء العرب، إعمال للعقل، أكثر مما هو رؤية بالبصر، أما في اللغة الأجنبية فإن كلمة Critique الفرنسية صفة ذات أصل لاتيني Critucus أو يوناني Kritikus فتعني حاكم Juger، يتعدد معناها بتعدد مجالات استخدامها فهي وضع حرج بالمفهوم الطبيعي Une situation critique، وهو تعبير يراد به الإشارة إلى الوضع الصحي أو الاجتماعي الحرج، أما في المجال الفكري فالنقد «فحص لقوى العقل في تأسيس شروط المعرفة»[5]، ويقال النقد هو«فن المحاكمة (art de juger)»[6].

يبدو أن هنالك فارقاً في التحليل بين اللغتين والسبب في تقديرنا فارق تاريخي بين المعجمين، إلا أنهما يتفقان في أن النقد – في جميع الأحوال – نظر وفحص ومحاكمة وهي حدود – بالمعنى المنطقي – مهمة ترادف حد النقد، ومع ذلك يحرمنا هذا التحليل من معرفة مواصفات وخصائص النقد مما يدفعنا إلى النظر إليه من الناحية الاصطلاحية

ب – في الاصطلاح: إذا نظرنا في مصطلح النقد عند أهل الاصطلاح لم نجد له معنى واحدا محددا، بل يتعدد معناه بتعدد موضوعاته وتعدد شروطه وغاياته، ولما كان المجال لا يسعنا للنظر في هذا التعدد سنقتصر على محاولة حصره في الفكر العربي المعاصر، تبعا لما تقتضيه هذه الورقة، فإذا نظرنا إلى النقد من جهة تاريخية، وجدناه فعلا ملازما للحضارة مثلما يقول حسن حنفي: «والحقيقة أن النقد

تيار يظهر في كل الحضارات وليس وقفا على الحضارة الغربية وحدها»[7] ولما كان فعلا حضاريا فهو يتلون بلون الموضوع الذي ينصب عليه، فالنقد قد يتوجه إلى الدين بعقائده وشعائره ونصوصه، وقد يتوجه إلى الفكر بمذاهبه ومناهجه وإيديولوجيته، وقد يتوجه إلى الواقع بظواهره الاجتماعية والسياسية، وقد ينصب على ذاته ضمن ما يعرف بنقد النقد، ويعتقد حسن حنفي بموجب هذا التنوع أن النقد الحقيقي ثلاثي الأبعاد:

الأول: نقد الموروث التاريخي بمعنى «إعادة بناء علومه في مرحلة تاريخية جديدة»[8] والأمر يتعلق هنا بالتراث.

الثاني: نقد الوافد الجديد بمعنى «تحويل علاقتنا به من مصدر للعلم كي يصبح موضوعا للعلم»[9] وهنا يتأسس ما يعرف بعلم الاستغراب.

الثالث: نقد الواقع حتى لا نقع في نقد النصوص سواء كانت قديمة أو حديثة « نقد الاحتلال والتسلط والفقر والتجزئة والتبعية والتغريب واللامبالاة وعجز الشعوب»[10].

وأيا ما كان موضوع النقد وغاياته فمن تحصيل الحاصل أن نصفه بأنه فعل العقل وهو يفحص موضوعه ويتأمله بهدف فهمه وكشف قيمته نظريا وعمليا.

يمتد صدى الجمع بين الغايات النظرية والعملية إلى برهان غليون، الذي يضيف حينما يوضح أن منهج النقد الموضوعي «يخضع [فيه] فحص الأسس والمقدمات العقلية إلى قواعد واضحة ومنطق مقبول (...) يلتزم بأصول المناظرة العلمية التي تحترم الوقائع والتاريخ وتصيخ السمع إلى الرأي الآخر وتهتدي به.»[11]، أي لا يكفي أن نفحص وننظر، بل لابد من أخلقة فعل النقد ليصبح التزاما قائما على الاحترام، وإلا غدا سجالا ينتقص فيه هذا بنقده ذاك، هذا ما دفع عبد الأمير الأعسم إلى رفض ما سماه النقد الراديكالي والذي لا يعني غير «صدور أصحاب النقد عن تشدد وتعصب في مباينة أراء الغير»[12]، ولعلنا ننتهي بأخلقة غليون للنقد ورفض التشدد والتعصب، إلى أن النقد في الفكر العربي المعاصر إما أنه فعل ينأى عن الحقيقة يستهدف النيل من الآخر قريبا كان أو بعيدا، يكشف السيئات ولا يذكر الحسنات، وإما أنه فعل يبتغي الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وهو النقد المطلوب والضروري لحركة الفكر الإبداعية.

النقد في نظر الجابري ومنهجه:

نظرا لضخامة مشروع الجابري، الذي يحمل عنوان نقد العقل العربي، وما خلفه من ردود فعل أخذت صيغاً كثيرة، إن في صيغة استفهامية هل هناك عقل عربي؟ كما هو الحال عند هشام غصيب أو في صيغة نقد النقد مثلما هو عند جورج طرابيشي أو في صيغة غير مباشرة اغتيال العقل وإصلاح العقل...إلخ، سنحاول أن نقف عند مفهوم النقد كما أراده محمد عابد الجابري وما هو المنهج الذي اتبعه؟ وما هي منطلقاته وأدواته؟ لننظر بعدها في قيمته.

النقد في نظر الجابري «مراجعة شاملة لآلياته [يقصد العقل] ومفاهيمه وتصوراته ورؤاه»[13] والمراجعة لا تعني فقط الرجوع والعودة إلى التراث العربي، بل هي إعادة قراءة له، متابعته في تكوينه وفي بنيته «وهكذا انقسم المشروع إلى جزأين منفصلين ولكن متكاملين: جزء يتناول تكوين العقل العربي وجزء يتناول تحليل بنية العقل العربي»[14] غير أن الجابري أضاف أيضا جزأين هما « العقل السياسي العربي» و«والعقل الأخلاقي العربي» هذه الأجزاء الأربعة تمثل في الحقيقة نقدا للعقل من الناحية النظرية ونقدا للعقل من الناحية العملية، ونقد العقل النظري والعملي مسلك تقليدي في الفلسفة، استأنس فيه الجابري بما كان عليه الفيلسوف الألماني كانط «هذه سنة في التأليف الفلسفي (...) فبعد إنجاز العمل في العقل النظري يأتي العقل العملي»[15].

موضوع النقد عند الجابري هو العقل العربي والمقصود بالعقل العربي هو « الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معينة لها خصوصياتها هي الثقافة العربية»[16]. بغض النظر عن توسل الجابري بـــ لالاند في تمييزه بين العقل المكون والمكوَّن، فإنه لا يعني بالعقل الأفكار الأيديولوجيا التي أنتجها العقل بل المقصود به «النظام المعرفي (مفاهيم، تصورات...) الذي يؤسس الثقافة التي ينتمون إليها»[17]، ولكي يقارب الجابري مفهوم العقل العربي أكثر، يضعه في مقابلة إزاء العقل اليوناني الأوروبي. فالعقل اليوناني،محكوم ببنية ثابتة تتمثل في الالتحام المباشر بالطبيعة، دون واسطة أخرى أي أن العقل يكشف نفسه في الطبيعة، بينما العقل العربي يتمحور حول العلاقة مع الله، يلزم على هذا الارتباط والتأسيس البنيوي أن العقل الغربي تحركه السببية، فهو موضوعي يحلل ويركب، ومن ثمة يبدع بينما ارتباط العقل العربي بالإله جعله عقلا معياريا ويقصد بالنظرة المعيارية «ذلك

الاتجاه في التفكير الذي يبحث للأشياء عن مكانها وموقعها في منظومة القيم، التي يتخذها ذلك التفكير مرجعا له ومرتكزا»[18]، وبالتالي فهو اختزالي، ذاتي، تمثيلي، تتعمق الهوة بين العقل الغربي المرتبط بالطبيعة الباحث عن السببية المنتجة للعلم، والعقل العربي المرتبط بالإله الباحث عن المماثلة، من خلال الزمن الثقافي فهو حركي مبدع «حركة نقدية» للعقل الغربي، بينما الزمن الثقافي العربي راكد ساكن، لأن الحركة فيه هي حركة اعتماد، أي تعتمد فيه أطر لا علاقة لها بالتاريخ، دليل ذلك أن الغرب يؤرخ بالقرون والعصور، والعرب يؤرخون بالأسر الحاكمة (أمويون، عباسيون، فاطميون) هكذا يكون التاريخ العربي، بلا تاريخ طازج الزمن.

إذن فالتخلف العربي معقول، ومبرر عند الجابري على الأقل، والخروج منه يقتضي إعادة ترتيب، يفرض علينا التخلي عن تاريخ الفرق، وتاريخ الطبقات وتاريخ المقالات...إلخ، آن الأوان للعرب أن يتجاوزوا التاريخ التقليدي، تاريخ الأجزاء المبعثرة، تاريخ يتحول فيه الحاضر إلى معرض للماضي...تاريخ الجزر الثقافية المعزولة (الكوفة، البصرة، دمشق، بغداد...) إلى تاريخ كلي للثقافة موصولا زمنيا ومكانيا ومتصلا بالثقافة العالمية، وهي المهمة التي يعتقد الجابري أنه يقوم بها، من خلال مشروعه النقدي، ومن ثمة سيختار الجابري إطارا مرجعيا للعقل العربي هو عصر التدوين لأن: «ما نعرفه عن ما قبل عصر التدوين إنما تم بناؤه في هذا العصر نفسه»[19].

هكذا يكون الجابري قد اصطنع منهجا بنيويا في نقده للعقل العربي، يقوم هذا المنهج مبدئيا على أن العقل هو: «البنية الذهنية الثاوية في الثقافة العربية كما تشكلت في عصر التدوين»[20] بفعل علوم اللغة وعلوم الدين التي تستنتج نظاما معرفيا بيانيا، تكون ما سماه الجابري العقل البياني، نفهم من خلاله المعقول الديني ممثلا في المعرفة بالله والاستدلال عليه بنظام الكون ونفي الشرك عنه...إلخ.

و نفهم أيضا اللامعقول العقلي من خلال المانوية والهرمسية والأفلاطونية المحدثة، هذه التيارات تلتقي في الاتفاق على عجز العقل على تحصيل أي معرفة عن الله من خلال تدبر الكون، هذا اللامعقول هو الذي سيشكل الأرضية التي ينبت فيها العقل المستقيل في الثقافة العربية الإسلامية، والذي سماه الجابري بالعقل العرفاني، الذي احتل موقع الصدارة، سواء في العلوم مع خالد بن يزيد بن معاوية في الكيمياء، أو مع الطبيب أبي بكر الرازي في أرائه الفلسفية، ويمكن متابعة

حضور العقل المستقيل مع إخوان الصفا، والإسماعيلية، والباطنية، وفي التصوف مع الحلاج ودعوته إلى حلول ويورد قوله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصـــرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنـــي
روحه روحي وروحي روحه من رأي الروحين حلت بدنا

العامل المشترك بين هذه الأطياف الفكرية، هو هيمنة النزعة اللاعقلية، التي لا تربط الظواهر بأسبابها، بل تزج بالعقل في متاهات الأسطورة والخرافة، وتصبح معه المعرفة نور يقذفه الله في القلب.

غير أن هنالك وجها آخر للثقافة العربية الإسلامية تجلى في السعي إلى تنصيب العقل كمصدر للمعرفة من خلال محاولات الفلاسفة مثل الكندي (185–252هـ) الذي عاش في ظل دولة مركزية قوية كدولة المأمون والمعتصم، دولة العقل، ومثل الفارابي(260–339 هـ) المعلم الثاني وأرسطو العرب، وأبو الوليد ابن رشد(525–596ه).

على هذا يمكن القول أن تشكل وتكون العقل العربي مثلته ثلاث بنيات، أنجبت ثلاثة أنظمة:

1/ نظام بياني مثلته الإيديولوجية السنية.

2/ نظام عرفاني مثلته الإيديولوجية الشيعية.

3/نظام برهاني أرسى قواعده الفلاسفة، بدءا من الكندي والفارابي يستثنى من الفلاسفة ابن سينا الذي دافع عن المشرقيين (إخوان الصفا والإسماعيليون) ضد المغربيين هم مناطقة بغداد، وسيستمر التأسيس بقوة، لكن هذه المرة مع علماء وفلاسفة الأندلس والمغرب، بدءا بابن حزم وابن باجه، وابن رشد، الذين مثلوا حضور البرهان، وواجهوا استقالة العقل من خلال العرفان الذي هيمن على الثقافة العربية فكان زمن الانحطاط.

– هكذا يمكننا لم شعث المنهج البنيوي عند الجابري في ثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى: مرحلة التكوين –التحليل التاريخي– وفيها جمع الجابري ما يحتاجه من أدوات للنظر في التراث العربي من هذه الأدوات

1 – التمييز بين العقل المكون الفاعل والعقل المكوَّن السائد الذي استعاره الجابري من لالاند والغاية من ذلك معرفة النظام المعرفي (مفاهيم وتصورات) الذي يؤسس الثقافة التي تنتمي إليها الثقافة العربية، زيادة على ذلك وضع الجابري العقل العربي إزاء العقل الأوروبي، لسبب وحيد هو أن العقل اليوناني الأوروبي أنتج العلم والفلسفة.

2– اللاشعور المعرفي: يقر الجابري بأنه استعار هذا المفهوم من بياجي الذي وظفه في ميدان السيكولوجيا البنيوية لينقله الجابري إلى ميدان الابستومولوجيا الثقافية، والغاية من ذلك بتعبير محمد عابد الجابري: «يساعدنا على إرجاع عملية المعرفة إلى جهاز من المفاهيم والآليات غير المشعور بها فعلا ولكن قابلة للرصد والمراقبة والتحليل»[21]، وبهذا يتجنب الجابري السقوط في التصورات اللاعلمية.

المرحلة الثانية: كشف البني، والمعالجة البنيوية، التي تطمح إلى بيان القوى التي تحكم العقل العربي وتجعله يفكر من خلالها، وهي بنى خاصة تمثلت في ثلاث أنظمة متداخلة أحيانا متصارعة أحيانا أخرى هي:

1 – **البيان:** نظام معرفي محكوم بعلوم اللغة والكلام والفقه وأصوله ينظر إلى العقل على أنه «غريزة في الإنسان لا تؤدي وظيفتها، بل لا يكتمل وجودها، إلا بما يكتسبه من معارف بواسطة الخبر أو النظر، والنظر ليس نظر العقل في مبادئه (...) بل نظر العقل في (الدليل) والدليل يقع خارج العقل وليس داخله إنه أشياء العالم بوصفها علامات وإمارات شاهدة على مدلولات غائبة»[22].

يفهم من ذلك أن البيان يتخذ من النص والاجتماع والاجتهاد سلطة مرجعية يعتمد اللغة، سيستدل على الغائب بالشاهد، محكوم بمبدأي الانفصال والجواز، فجوهر الفرد منفصل عن سواه والجواز إنكار الضرورة السببية.

2 – **العرفان:** هو الكشف والإلهام والنور الذي يقذف بالقلب، فهو معرفة ذوقية وهو يقع عند الصوفية في مقابل البيان عند أرباب اللغة والبلاغيين، وفي مقابل البرهان عند الحكماء يأخذ طابع المنهج عند الصوفية وطابع النظرية عند الشيعة، ومبدأ العرفان المماثلة سواء كانت تناسبا رياضيا أو كانت تمثيلا وتشبيها خطابيا أو شعريا، وهو أدنى درجات المعرفة.

و المبدأ الثاني للعرفان هو الطابع الأسطوري والخرافي الذي ينبثق من القول بالباطن في مقابل الظاهر، هكذا« يمنح [العرفان] نفسه قدرة من جنس القدرة الإلهية، فلا يعود يعترف لا بقيود المكان ولا بقيود الزمن ولا بقيود الطبيعة»[23].

3 – **البرهان:** هو النظام المعرفي الثالث الذي يحكم العقل العربي، يحتكم هذا النظام إلى العقل كقدرة بإمكانها الوصول إلى الحقيقة، تترجم الفلسفة هذا النظام وتجسده، خاصة تلك التي أسسها أرسطو من خلال المنطق، مبدأ هذا النظام الاتصال والضرورة من خلال لزوم النتائج عن المقدمات، والاحتكام إلى مبادئ العقل، والثقة في قدرة العقل على إدراك الحقيقة.

المرحلة الثالثة التحقق والتطبيق: ويشملها نقد العقل العملي، ممثلاً في جزأين العقل السياسي العربي والعقل الأخلاقي العربي، ففي الجزء الأول يصطنع جملة من الأدوات تساعده في التحقق سماها محددات، وتشمل بعض المصطلحات المستعارة من العلوم الإنسانية والاجتماعية، مثل اللاشعور السياسي الذي نظر له ريجيس دوبروي في كتابه نقد العقل السياسي، ومعناه ليس وعي الناس هو الذي يؤسس علاقاتهم الاجتماعية ومصالحهم الطبقية، بل اللاشعور السياسي هو الذي يحرك علاقاتهم، والذي نكتشفه في العلاقات القبلية والعشائرية الطائفية، كما يستعير مصطلح المخيال الاجتماعي(L'imaginaire Social) ويستعمله الجابري بمعنى ما يملأ الذهن من المآثر والبطولات وأنواع المعاناة، هذا زيادة على مصطلح الرأسمال الاجتماعي والمجال السياسي.

ورغم إعلان الجابري بأن منهجه منهجٌ في العقل النظري يختلف عن منهجه في العقل العلمي تبعا لتباين الموضوع إلا أن تحليله للعقل السياسي مبطن برؤيته للعقل النظري ذلك أن تجليات العقل السياسي منسجمة تماما مع بنى العقل النظري، فدولة الملك السياسي تستند إلى العقل البياني وميثولوجيا الإمامة تستند إلى العقل العرفاني والحركة التنويرية تستند إلى العقل البرهاني في حدود ما يظهر ذلك مع المعتزلة.

نكاد نلمس الشيء نفسه بالنسبة إلى العقل الأخلاقي، إذ يعلن الجابري في مقدمة كتابه عن المنهج المتبع ويفيد بأن له خصوصية تظهر أيضا في استعارته لمفاهيم أخرى مثل المنظومة والنظام، ومع ذلك سيظل المنهج هو «نفس المنهج

الذي اتبعناه في الأجزاء السابقة وقد كنا قد حددنا خطوته في كتابنا (نحن والتراث)، التحليل التاريخي، المعالجة البنيوية والطرح الأيديولوجي»[24]

نتائج منهج النقد الجابري:

منطوق النتائج التي استخلصها الجابري تتمثل فيما يلي:

1-إمكانية الإجابة على السؤال التقليدي لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ الذي طرحه شكيب أرسلان والإجابة علن هذا السؤال ستظل ناقصة «ما لم تطرح على الصعيد الإبستمولوجي، ما لم يتجه مباشرة إلى العقل العربي»[25] يعني ذلك تجاوز الطرح الإيديولوجي الذي يتناول العقل العربي من الخارج.

2- ليست المسألة هي الأخذ بالتراث أو تركه بقدر ما هي تحليله ودراسته وكشف بناه واكتشاف العطب الذي مس تطور العرب والمسلمين.

3- يفتح نقد العقل العربي المجال لاستئناف النظر، يقول الجابري مختتما الجزء الثاني من نقد العقل العربي: «وبعد فلم يكن في نيتنا الذهاب بهذا العمل إلى أكثر من بدء النظر في كيان العقل العربي وآلياته، وقد قمنا في هذا المجال بما استطعنا القيام به، رائدنا هو فتح ما يمكن من النوافذ واقتراح أكثر ما يمكن من موضوعات للبحث والمناقشة»[26] يعني أن الجابري يفتح الشهية لممارسة التفلسف الذي غاب أو غيب من ساحة الوعي العربي، ومن ثم تجاوز الاجترار والتكرار والانغلاق.

4- التمكن من فهم الواقع الاجتماعي والسياسي ومصدر هذا النزوع الاستبدادي في ممارسة السياسية، وهذه القيم الكسروية التي توجه الفعل فينا.

5- التطلع إلى واقع سياسي أكثر انفتاحا على قيم الحرية والديمقراطية والمواطنة.

نقد النقد:

لعل قيمة مشروع الجابري لا تكمن فيما قاله أو لم يقله، بل فيما أثاره من حراك فكري في الوعي العربي فمنذ صدور الجزء الأول تكوين العقل العربي، حتى طفت إلى السطح كتابات اتجهت بالنقد لهذا النقد، بل بلغ الأمر إلى نقد نقد النقد، تراوحت هذه الانتقادات بين التحامل ناكرة أي قيمة للعمل، بل نظرت إليه

بوصفه مشوها للعقل العربي، وبين انتقادات تظاهرت بالاستقامة لإنصاف الجابري، ما له وما عليه، لذا سنمثل لكل شكل من أشكال هذا النقد بالصورة التالية:

النقد الأيديولوجي للنقد الجابري: طالع د.هشام غصيب الدارسين بكتاب يحمل العنوان التالي: هل هناك عقل عربي؟ قراءة نقدية لمشروع محمد عابد الجابري ط1 1993، يوحي العنوان بأننا أمام بحث أكاديمي، سيمتحن أمكانية الحديث عن عقل عربي، غير أننا نصاب بخيبة أمل، عند تصفح الكتاب، فإذ نظرنا إلى المحاولة وجدناها من حيث المبدأ تخلو من أي طبيعة أكاديمية إذ اكتفى صاحب النقد بالإحالة هكذا في مقدمة كتابه «أود أن أنبه القارئ الكريم إلى أن الاقتباسات الواردة في النص (وجلها مقتبس من كتاب الجابري تكوين العقل العربي)»[27] ثم يضع قائمة من ثمانية كتب خمسة منها للجابري واثنان مهدي عامل وأخيرا تجديد الفكر العربي لزكي نجيب محمود.

يقدم الجابري ــ من وجهة نظر ناقده ــ تفسيرا مثاليا يتناقض والواقع العربي، وكل ما في الأمر أن الجابري «يبدي من البراعة في فن الجدال ومن الأصالة في ابتكار المفهومات واستعمالها في دراسة تراثنا ما يجعل من الصعب حقا على القارئ مقاومة إغراء الوقوع تحت تأثير سحره»[28] غير أنه في الحقيقة لا يزيد عن كونه مثاليا هيجليا « فالعقل العربي هو الذي ينتج الثقافة العربية التي تكون هذا العقل ويتشكل داخلها»[29].

وبناء على ذلك «يتضح أن الجابري ليس مفكرا منظرا بقدر ما هو إيديولوجي عقائدي، فليس هدفه بناء إطار نظري متماسك منطقيا من أجل استنطاق الواقع، وإنما يتمثل في تسخير أفكار ونماذج لا تربطها روابط منطقية محددة لتحقيق أغراض إيديولوجية (لا معرفية) مختلفة»[30].

يعتقد ناقد الجابري أن هذا الأخير قابل بين العقل العربي والعقل اليوناني والأوروبي، من باب أن الضد يكشف عن ضده وهو في تقدير الناقد، مصطلح غير ملائم إذ كان بإمكانه أن يوظف الآخر بدل الضد هذا عدا لجوء الجابري إلى السهولة والرعونة الفكرية، إذ يتحيز عرقيا لكل ما هو أوروبي وغربي، وهي حالة من الشعور بالدونية، إضافة إلى ذلك أن الأولى بالجابري أن يقرأ تاريخ الفكر أو العقل قراءة جدلية مادية، ولما لم يفعل فهو قد حكم على العقل بالثبات وعليه فتصور الجابري «تصور لا علمي خاطئ تنخره الثغرات المنطقية والتاريخية»[31]،

ثم أن الجابري الذي غيَّب سوسولوجيا الثقافة مارس الحديث عن العقل اليوناني أو الغربي أو العربي بانتقائية خدمت توجهه الأيديولوجي.

نعتقد في تقديرينا أن هذا النقد في حد ذاته يتضمن تحاملا، لم يصمد أمام مشروع الجابري الذي استمر، إذ أتبعه الجابري بالعقل السياسي ثم العقل الأخلاقي، ولم يتحول الجابري عن منهجه أو رؤيته للعقل العربي.

النقد المؤسس وبناء مشروع جديد:

احتفى طرابيشي بمشروع الجابري إبان صدور كتابه الأول «تكوين العقل العربي» ودبج مقالا يطري فيه المشروع، ويعلن الآن بدأ عهد جديد في الوعي العربي، لكن سرعان ما ناهض طرابيشي هذا المشروع، وكرس جهده لنقد نقد العقل العربي، فكيف كان هذا النقد؟ ما هو المنهج الذي اتبعه طرابيشي في نقد الجابري؟ وماذا كانت نتائجه.

– تصدى طرابيشي لمشروع الجابري بمشروع مضاد أخذ عنوان نقد نقد العقل العربي، أنجز منه أربع أجزاء هي كالتالي:

– نقد نقد العقل العربي (1) نظرية العقل العربي.

– نقد نقد العقل العربي (2) إشكاليات العقل العربي.

– نقد نقد العقل العربي (3) وحدة العقل العربي.

– نقد نقد العقل العربي (4) العقل المستقيل في الإسلام.

أخذ منه هذا المشروع فيما يقول صاحبه نحوا من خمسة عشر عاما [32] أثمرت مشروعا متكاملا كما أسلفنا.

منهج طرابيشي في النقد:

سلك طرابيشي منهج التحليل النفسي في تحليل الثقافة العربية ومن ثم نقد الجابري، فهو يرى أن التخلف العربي والعجز عن بلوغ الحداثة خلف جرحا انثروبولوجيا نارجيسيا[33]، نجم عن«تضخيم الأنا وتحجيم الآخر»[34].

إن أوضح صورة لهذا التضخم والتضخيم هو ذكر فضل الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الغربية، مع أن حداثة الغرب ما كانت لتحدث أو أن تكون لولا القطيعة مع العصور الوسطى، وكأن طرابيشي ينصب نفسه محاميا على حضارة الغرب البكر التي لم يمسسها شيئٌ من دنس الحضارة الإسلامية.

و في هذا السياق يحمل طرابيشي على الجابري إذ حكم على الثقافة العربية بأنها منغلقة على نفسها، مستنكرا «من كون علوم النقل والعقل في الحضارة الإسلامية ولدت جميعها ناجزة مكتملة دون أن تعرف التطور الذي عرفته أوربا»[35] ليرد طرابيشي مؤكدا انفتاح الثقافة العربية الإسلامية عبر التاريخ مع التأكيد على دور الشام في ذلك.

إن أول ما يرفضه طرابيشي من عمل الجابري هو الإبستمولوجيا الجغرافية تلك التي برر بها الجابري موقفه الإعدامي لثقافة الشرق ممثلة في ابن سينا، وإخوان الصفا، والإسماعيلية، والباطنية، حينما ضمهم جميعا في النظام العرفاني اللاعقلاني الذي أسس لاستقالة العقل في مقابل ثقافة المغرب ذات النظام المعرفي البرهاني العقلاني التي تصلح منطلقا لبدء جديد.

بذل طرابيشي مجهودا مضاعفا للتدليل على أن المشرق الذي جني عليه الجابري مبدع مساهم في الحضارة الإنسانية هذا ما تجسده الفلاحة النبطية[36] لابن وحشية الذي لم يكتب الجابري عنه سوى ثلاث صفحات، ليكتب عنه طرابيشي تسعين صفحة مبينا تفوق العقل الشرقي منذ القدم نافيا عنه صفة العرفانية الجابرية.

و نفس الشيء بالنسبة لإخوان الصفا [37]، الذين ضمهم الجابري بجرة قلم في زمرة العرفانيين اللاعقلانيين وهم الذين شرحوا كتاب البرهان (أنولطيقا الثانية)[38] ولقي الحفاوة البالغة من قبلهم فكيف يحشرهم الجابري مع العرفانيين اللاعقلانيين؟ وهم الذين سلكوا مسلكا توحيديا جامعا، ترفعوا فيه عن الخلافات التي سادت بين الفرق، «ولكن الإخوان، بدلا من أن يزجوا بأنفسهم في دوامة هذا الصراع التاريخي والأيديواوجي معا، ما بين أنصار الخلافة السنيين وأنصار الإمامة الشيعيين، يؤثرون أن يتعالوا بأنفسهم فوقه، واضعين نصب أعينهم الجمع، لا الفرق، بين فرق الأمة»[39].

إن معارضة طرابيشي للجابري في ضمه لإخوان الصفا إلى قائمة العرفانيين اللاعقلانيين، توحي بالقول أن الجابري لم يقرأ التراث، ولم يطلع على فكر الإخوان (إخوان الصفا) وهم الذين سووا بين الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، وسووا بين مقتل عثمان ومقتل علي، وهم الذين وقروا عائشة أم المؤمنين، وأكثر من ذلك انتقدوا التشيع، وانتقدوا المسبعة عند الإسماعيلية... فلماذا يحشرهم الجابري في زمرة العرفانيين وما هم بعرفانيين؟ وأخطر ما في نقد طرابيشي للجابري هو اتهامه بالانتحال (كتاب معجم اللغة الفلسفية لبول فوكييه).

إن الإمعان والمبالغة في اتهام الجابري بالانتحال أخرج النقد عن دائرة البحث العلمي الذي يتوخى الحقيقة وأسقطه في فخ المزايدة أو المناقصة «وهو الأمر الذي يضعف من شأن النقد الذي يمارسه»[40]، ومن ثمة فنقد النقد الذي مارسه طرابيشي بدا لنا في البداية موضوعيا، ليظهر لاحقا بأنه تحاملاً أكثر منه نقدا موضوعيا «لم يتبع البحث الإبستيمولوجي كما ينبغي، حيث تجد هنالك الاتهام والتحامل والجدل والتنقير في كل شاردة وواردة»[41]وما يضعف نقد طرابيشي للجابري، أن طرابيشي لم يستطع التخلص من سطوة منهج الجابري، فهو يخوض في جزئيات ربما أغفلها الجابري، لكنه لا يلتفت إلى ما في منهج الجابري من قصور.

لعل من الانتقادات الجادة لمشروع الجابري ما ورد في اغتيال العقل للمفكر السوري برهان غليون، والذي نعتقد بأنه يدرج النقد الجابري في سياق العقل السجالي إذ يصدق على منهج الجابري خاصية الاختلاط المنهجي، فالجابري انتقائي في تناوله للتراث، إقصائي لكل ما لا ينسجم مع أحكامه وتوجهاته، وترتب على ذلك الخلط في المفاهيم كاستخدام بعضها مكان بعض «ربما كانت اكبر المشاكل التي تواجه اليوم مراجعة الفكر العربي لنفسه، كما تتجلى على الأقل في معظم الأبحاث الصادرة في الموضوع، هي تخفيض الثقافة إلى مستوى الخطاب، ودراسة الخطاب من حيث هو عقلاني أو لاعقلاني»[42] وهكذا فمن الخطأ نقد الفكر الديني أو الصوفي من منطق البحث الطبيعي وبمنهجه ومفاهيمه، مثلما أنه من الخطأ نقد المعرفة الطبيعية بمنطق الفقه، ثم أن القول ببنيات ثابتة تحكم العقل العربي، تمنع بيان طابع التطور في الفكر العربي، والذي لا ينكشف إلا من خلال منهج يستحضر السياق التاريخي، أي أن المنهج الموضوعي، يقتضي الالتزام «بأصول المناظرة العلمية التي تحترم الوقائع والتاريخ وتصيخ السمع إلى الرأي الآخر»[43]، إن التنبيه إلى التزام المنهج الموضوعي يجنب البحث العلمي الانزلاق في متاهة الإيديولوجيا، وهو ما نعتقد أن الجابري قد وقع فيه.

خاتمة

ما نصل إليه في هذا العرض الوجيز:

1/ أن المشروع النقدي للجابري قد أثار ردود فعل متباينة، ونعتقد أن قيمته لا تكمن فيما كانت تحليلاته علمية موضوعية، أو كانت إيديولوجية ذاتية، بل الأهم

هو الحراك الذي أحدثه هذا المشروع في الفكر العربي المعاصر، وهو ما لم يبلغه أي مشروع آخر.

2/تعرض هذا المشروع النقدي لانتقادات كثيرة ومتنوعة، لكنها في الغالب تفتقر إلى ما في مشروع الجابري من توثيق، دل إلى حد كبير على اطلاع الجابري ودرايته بالتراث.

3/ ساهم الجابري في تحقيق نقلة نوعية في اللغة العربية وطوعها لتتناول أعمق المسائل الفلسفية بيسر وسلاسة.

4/ أبدى مشروع الجابري صمودا وقوة أمام نقاده، واستمر على نفس الوتيرة، متنقلا من العقل النظري إلى العقل العملي، ومن العقل السياسي، غلى العقل الأخلاقي، مما يدل على ثقة صاحب المشروع في مشروعه.

5/ استطاع مشروع الجابري أن يكسب أنصارا حتى لا نقول أتباعا، بدليل إنشاء مؤسسة تعتني بفكره.

6/ نعتقد أنه من الصحيح القول بانحراف مشروع الجابري عن مساره الابستمولوجي باتجاه المنحى الايديولوجي الذي حذر منه.

الهوامش:

1 – ابن منظور: لسان العرب (المجلد الثالث) دار صادر، بيروت لبنان ط1 1955 ص425.

2 – المرجع نفسه ص426.

3 – المرجع نفسه الصفحة نفسها.

4 – الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق أبو الوفاء، نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط2 2007 ص 347.

5 – le petit larousse ed, 2001 p 283

6 – Gianni Vatimo , Encyclopédie de la philosophie ,Imprimé en Italie , 1er Ed ,2002,P 348

7 ــ حسن الحنفي: هل النقد وقف على الحضارة الغربية، في حسن الحنفي [و آخ]، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، أعمال الندوة الفلسفية 15 للجمعية الفلسفية المصرية، م، د، و،ع لبنان ط1 2005 ص 08

8 ــ المرجع نفسه ص23.

9 ــ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

10 ــ المرجع نفسه الصفحة نفسها.

11 ــ برهان غليون اغتيال العقل موفم للنشر، الجزائر ط1 1990 ص 69.

12 ــ عبد القادر الأعسم، إشكالية النقد الراديكالي وأزمة الصحيح والمنحول في الثقافة العربية المعاصرة في حسن حنفي [وآخ] مرجع سابق ص215.

13 – محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، م،د،و،ع لبنان ط9 /2006 ص05

14 – المصدر نفسه ص06

15 – محمد عابد الجابري [و آخ] الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي / حوارات فكرية م، د، و، ع ط1، 2004 ص11.

16 – محمد عابد الجابري تكوين العقل العربي مصدر سابق ص13.

17 – المصدر نفسه ص16.

18 – المصدر نفسه ص32.

19 – المصدر نفسه ص71.

20 – المصدر نفسه الصفحة نفسها.

21 – محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي (مصدر سابق) ص41.

22 – محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي (م، د، و،ع) لبنان ط8 2007 ص38.

23 – محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي (مصدر سابق) ص379.

24 – محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي (م،د،و،ع) لبنان ط2 2006 ص 23.

25 – محمد عابد الجابري تكوين العقل العربي (مصدر سابق)، ص347.

26 – محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي (مصدر سابق) ص573.

27 – هشام غصيب: هل هناك عقل عربي (م،ع،د،ن) لبنان، دار التنوير العلمي الأردن ط1، 1993 ص7.

28 – المرجع نفسه ص12.

29 – المرجع نفسه ص23.

30 – المرجع نفسه ص43.

31 – المرجع نفسه ص78.

32 جورج طرابيشي: العقل المستقيل في الإسلام (نقد نقد النقد العقل العربي 4) دار الساقي لبنان ط1 2004 ص9.

33– استوحى طرابيشي فكرة الجرح النرجسي من التحليل النفسي الفرويدي في إشارة منه إلى أن فرويد قد كشف عن ثالث جروح كونية، الجرح الكسمولوجي مع كوبرنيك، والجرح البيولوجي مع دارون، والجرح السيكولوجي مع فرويد، ويقول طرابيشي «نضيف نحن جرحا نرجسيا رابعا، لا نتردد في أن نصفه بأنه من طبيعة انثروبولوجية».راجع جورج طرابيشي، هرطقات،دار الساقي، ط1، 2006، ص94.

34– جورج طرابيشي: من النهضة إلى الردة، تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقي لبنان ط1 2000 ص81.

35– المرجع نفسه ص86.

36– الفلاحة النبطية: كتاب يتناول «الكتابات البابلية القديمة [وصلنا] في ترجمات عربية » يعود إلى أكثر من 14 قرن ق.م ترجمه ابن وحشية راجع جورج طرابيشي: العقل المستقيل (م.س) ص183–184.

37– المسبعة: إشارة إلى تقديس الإسماعيلية للعدد سبعة فالأئمة عندهم سبعة، وأولو العزم عندهم سبعة...

38 - جورج طرابيشي، العقل المستقيل (م،س)، ص 304.

39 – المرجع نفسه ص318.
40 – يحي محمد، نقد العقل العربي في الميزان، دار الانتشار العربي،ط1، 1997 ص207.
41 – المرجع نفسه الصفحة 245.
42 – برهان غليون، اغتيال العقل، مرجع سابق ص56.
43 – المرجع نفسه، ص69.